

أبعدوا التقديس والتأليه عن سعادة

ثمة حدثان استرعيا اهتمامي خلال الشهرين الماضيين اخترت أن أشاركهما مع قرّاء الفينيق، عليهما يؤسسان حوارات بناءة بين القوميين الاجتماعيين، بغية ترسيخ مفاهيم مشتركة للفكر والعقيدة القوميين.

الأمر الأول وردني إبان جلسة بين القوميين حيث بادر أحدهم إلى توجيه سؤال إلى الحاضرين مستمزجاً آراءهم فيما يختص بما سمعه على لسان رفيق أعلن أن "ليس كل ما كتبه أو قاله سعادة مقدساً". أما الأمر الثاني فهو إعلان رفيق آخر بأن "كل ما قاله أو كتبه سعادة يشكّل هو العقيدة السورية القومية الاجتماعية" التي أطلقها الزعيم أساساً للحركة التي نادى بها (والتركيز هنا على كلمة "كل").

فلنأخذ الحدث الأول أولاً، ونحاول أن نفهم ما قصده الرفيق بأن ليس كل ما قاله سعادة مقدساً، ولعل أول ما يتبادر إلى ذهننا هو السؤال "هل أن فقط أجزاء ممّا قاله سعادة مقدسة، مقابل "ليس كل ما كتبه"؟ طبعاً الجواب هو "لا، إطلاقاً"، لا أجزاء من أقوال سعادة ولا كليتها مقدسة. فصفة القداسة لم يطلبها الزعيم، ولم يمنحه إيّاها أحد على الإطلاق، لا معاصروه، ولا المخضرمون ولا الأجيال التي لم تكن قد وُلدت بعد. وذلك على الرغم من التهم التي ما فتئ يوجّهها من لم يفقه جوهر عقيدة سعادة بأن ولاء القوميين يقوم على اساس فكرة "التأليه" لشخص أنطون سعادة. هؤلاء لم يعوا طبيعة تفاعل المنتمين إلى الحزب مع العقيدة، ولم يدركوا ماهية تعاقد المقبلين مع الشارع صاحب الدعوة التي تقوم على أساس قناعة وإيمان بالمنطلقات الفكرية التي وضعها سعادة. وبهذا تكون لفظة "القداسة" فيما يعني الحزب ومؤسسه مرفوضة حكماً. النتيجة إذن هي أنه على الرفيق الذي أطلق هذا الإعلان، أيّاً كان، أن "يسحبه من التداول" فوراً ويعتذر من القوميين لأنه خدم بفعله هذا أعداء الحزب وخصومه، لا بل سلّمهم بطاقةً بيضاء بأن ما يسوقونه من تهم باطلة ينضوي على شيء من حقيقة معينة.

وإذا عبرنا ممّا سبق إلى الحدث الثاني (وسنعود إلى مسألة "القداسة" لاحقاً)، نسأل سؤالاً آخر "أوليس العقيدة هي المبادئ الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل لا تبعاً لزمان أو مكان ولا تماشياً مع ظروف أو حالات ولا مراعاة لمشاعر أو خدمة لأهداف سياسية آنية؟"

العقيدة هي الثوابت لا المتغيرات، وهي ما يلزم المؤمنين بها العمل والتضحية في سبيلها. العقيدة هي الأساس الصلب للفكر والنهج والعمل والتخطيط والتنفيذ. يقول سعادة "بعد أن وضعت مبادئ القضية القومية التي هي مصدر جلاء الأفكار ووحدة العقيدة والاتجاه.. فيتضح من هذا القول أن فهم سعادة لدور المبادئ، وبالتحديد الأساسية منها كما سنذكر لاحقاً، يقوم على كونها عامل وحدة العقيدة. ويقول في مناسبة أخرى "مبادئ الحزب السوري القومي جامعة الشعب السوري في عقيدة واحدة توحدته اجتماعياً وسياسياً". فلم يحدد سعادة عناصر أخرى تشكل العقيدة وتوحدتها غير مبادئ الحزب.

تزيل مقدمة "دستور الحزب السوري القومي الاجتماعي وقوانينه" أي التباس أو شك حول ما يشكّل العقيدة القومية الاجتماعية فيقول "ثم إنّ الشارع قسّم مبادئ الحزب السوري القومي الاجتماعي إلى قسمين: يختصّ الواحد بالعقيدة القومية الاجتماعية وينطوي على المبادئ الأساسية."

قد يقول قائل أوليس كل ما كتبه أو قاله الزعيم ينطلق من المبادئ (العقيدة)؟ وإذا كان الأمر كذلك فتشكل أقوال وخطب وكتب الزعيم مجتمعة العقيدة القومية الاجتماعية. الجواب على القسم الأول من هذا التصريح هو بالطبع نعم، فالزعيم قد عرف المبادئ بأنها قواعد انطلاق الفكر (كلمة "قواعد" هنا لا تعني الأصول والقوانين بل الأسس والمنصات التي يقوم عليها البناء الفكري)، فالزعيم حدد قاعدة الانطلاق لمحاربة النزعة الفردية وتقديم الغالي والرخيص من أجل سمو الأمة وتقديمها وفلاحها وتحديد الولاء لها بمبدأ "مصلحة سورية فوق كل مصلحة"، هنا تكمن نقطة الانطلاق. فالزعيم لم يضع، مثلاً، "إن الدماء التي تجري في عروقنا عينها هي ليست ملكنا، بل هي وديعة الأمة فينا متى طلبتها وجدتها" كمبدأ للعقيدة، بل هذه الحقيقة الوجدانية القومية هي نتيجة للمنطلق الفكري بأن مصلحة سورية هي فوق كل مصلحة.

وعلى المقياس نفسه، وإن بدرجات متفاوتة، يتضح لنا بأن جوهر العقيدة عند سعادة متمثل بالمبادئ الأساسية فقط، كما حدد في المبدأ الرابع بأن "الأمة السورية هي وحدة الشعب المتولدة من تاريخ طويل يرجع إلى ما قبل الزمن التاريخي الجلي". هذه هي العقيدة التي ولدت عامل جذب للقوميين المؤمنين. هذا هو التعريف المجتمعي العلمي لوحدة الشعب ولحقيقة تولدها، فسعادة لم يقل "الأمة السورية هي وحدة الشعب المتولدة من كينونته مجموع المسلمين لرب العالمين الذين منهم من أسلم لله بالإنجيل ومنهم من أسلم لله بالقرآن ومنهم من أسلم لله بالحكمة". فعلى الرغم من أن سعادة قد يكون قد أوحى إلى مثل هذه الفكرة في كتاباته، لكن لا يمكن القبول بها على الإطلاق كجزء من العقيدة القومية الاجتماعية. وقد ينبري أحدهم هنا للقول بأنه "عليك أن تنظر إلى الظروف والأحوال التي كانت سائدة في أنحاء الوطن السوري حين قال سعادة ما قاله في هذا الشأن". نعم، أعتزف أنني سمعت مثل هذه التعليقات غير مرّة، وهنا نقول إن إعلان سعادة بأننا "كلنا مسلمون لرب العالمين..." هو نتيجة لما ورد في العقيدة من أن السوريين أمة تامة وأنهم مجتمع واحد، فلخدمة العقيدة/الهدف إنطلق سعادة من المبادئ، ليعلن مقابل حالة مرضية طائفية دينية مستشرية بين فئات كثيرة من أبناء المجتمع بأن ما يجمع السوريين، حتى من الناحية الدينية، هو أكبر مما يفرقهم. ليس بالإمكان إطلاقاً ربط المجتمع السوري في أطر دينية أو مذهبية أو طائفية حين تثبت العقيدة أن "الأمة السورية هي وحدة الشعب السوري المتولدة من تاريخ طويل يرجع إلى ما قبل الزمن التاريخي الجلي"، والتاريخ الطويل الذي يرجع إلى عصور سبقت الزمن الجلي يشمل كل الفلاسفة والعلماء والمفكرين الذي سبقوا القداسة والتقديس والتبخير.

لنعد وإياكم إلى الأمر الأول المتعلق بـ "ما هو مقدّس"، فالأحرى هو القول إن ليس كل ما قاله سعادة خارج أطر العقيدة والدستور - العقيدة (وما قد ينشأ عنهما من مراسيم قانونية أو نظامية) بالتحديد ليس مُلزماً، فكما رأيه بالموسيقى، وإن وافقنا على ما جاء فيه بكلّيته، ليس مُلزماً، كذلك رأيه في الأدب والشعر. فانتماؤنا إلى الحزب قام على اتخاذ مبادئ الحزب "شعاراً" لنا، وليس اتخاذ نظريات سعادة في نشوء النوع البشري وعناصر نشوء الأمة شعاراً لنا، وإن جاءت مبنية على أسس علمية متينة.

لأن الكلمة عندنا تعني مدلولها من الضروري أن يكون قاموسنا واحداً ولغتنا واحدة وفهمنا لجوهر إيماننا واحداً.